القسم
الثانى

# الأنـــــدلـس

## مدخل ببليوغرافى
# لتاريخ الأندلس

كما فعلنا فى دراستنا للجزء المغربى من هذا الكتاب، عندما قدمنا له بمقدمة ببليوغرافية، تعرف بالموارد التاريخية التى نعتمد عليها فى كتابة تاريخه، فكذلك نبدأ تاريخ الأندلس بمقدمة ببليوغرافيةٍ وصفيةٍ، نعرف فيها بموارده ما بين أصولٍ ومراجع.

فيما يتصل بتاريخ شبه الجزيرة الإيبيرية فى عصورها الإسلامية، لدينا روايتان أساسيتان: الرواية العربية، والرواية غير العربية ما بين لاتينيةٍ وإسبانيةٍ وبرتغاليةٍ. ولا غنىً لمؤرخ الأندلس عن الرجوع إلى الرواية غير العربية بمختلف لغاتها وخاصةً ما كتب منها فى شبه جزيرة إيبرية باللاتينية أو الإسبانية أو البرتغالية، لأن تاريخ الأندلس كما ذكرنا آنفاً إنما هو تاريخ صراع بين الإسلام والنصرانية على مصير شبه الجزيرة، والكثيرون جداً من العرب الذين يكتبون تاريخ الأندلس يقتصرون على الروايات العربية على اعتبار أن الأندلس كان قطراً إسلامياً عربياً، مثله فى ذلك مثل مصر والشام والعراق مثلاً، ومن هنا فإن أهمية الرواية غير العربية أهمية ثانوية. ولكننا رأينا فيما روينا من تاريخ الأندلس أن الأمر على خلاف ذلك، فإن العرب عندما دخلوا شبه الجزيرة، دفعوا بمن بقى من سادتها القدماء، وهم القوط ومن انضم إليهم ممن اختار مقاومة الإسلام، إلى أقاصى الشمال وحصروهم عند سفوح جبال ألبرت من ناحية، وخلف جبال الكنتبرية من ناحية أخرى فيما يعرف «بأشتريس وجليقية». وفى هذه الأراضى القليلة الجبلية الوعرة انحصر أولئك النصارى وعاشوا آمنين، خاصةً بعد أن أخرجوا من أشتريس الحامية العربية التى كان موسى بن نصير قد خلفها قريباً من الموضع الذى وقعت فيه موقعة «كوفادونجا» عند جبل شيبة، وهى الصيغة العربية لاسمه بالإسبانية Auseba.

وسنرى أن المسلمين - بسبب قلتهم عددياً أول الأمر، ثم بسبب الحروب التى نشبت بينهم وبعضهم البعض خلال عصر الولاة، وما كان بينهم وبين البربر من

نزاعٍ طويلٍ ، وما أعقب ذلك من مجاعةٍ شملت الأندلس بعد ثلاثين سنة تقريباً من الفتح أى حوالى سنة ١٢٣هـ/ ٧٤٠م ــ تركوا الربع الشمالى الغربى لشبه الجزيرة خالياً من سكانه المسلمين ، فأصبح منطقةً فراغ لا يعمرها أحد ، ابتداء من منتصف المسافة بين نهرى « الدويرو والمنيو » حتى ساحل بسكاى ، فكانت تلك فرصة لنصارى الإسبان المنحصرين فى الشمال لكى يمتدوا إلى الجنوب ويعمروا هذه النواحى وخاصةً ما كان فيها من مدنٍ ومراكزَ عسكريةٍ رومانيةٍ قديمةٍ من أمثال « ليون وأماية وأشترقة وسهاجون » وما إليها . وفى عصر الملك ألفونسو الثالث نقلوا عاصمتهم إلى ليون وسيطروا تماماً على حوض المنيو ، وامتدوا إلى حوض منديق ، بل وصلوا إلى حوض الدويرو أى أن مملكتهم التى أصبحت تسمى مملكة أشتريس وليون ، أصبحت دولةً قويةً ذات أراضٍ واسعةٍ وموارد وافرةٍ ومدنٍ عامرةٍ ونظمٍ سياسيةٍ قائمةٍ .

هذا عن الجانب الغربى من شمال شبه الجزيرة . أما الجانب الشرقى ويشمل حوض نهر الإبرو ، وما يليه من الأراضى شمالاً حتى « لاردة ووشقة وتُطيلة » ، أى ذلك القسم من الأندلس الذى عرف باسم « الثغر الأعلى » ، فإن سلطان العرب قد وقف عند سفوح جبال ألبرت المعروفة بالبرانس ، وانحصرت قواتٌ نصرانيةٌ فى إماراتٍ صغيرةٍ قامت فى جبال ألبرت ، وجزءٍ من السهول جنوبها ، وأهمها فى الغرب إلى الشرق نبرة وعاصمتها « بلبلونة » ثم ثلاث كونتينات جبليةٍ صغيرةٍ هى من الغرب إلى الشرق « أرغون وشبرب وريباجورثا » ، وتلك هى الكونتينات الثلاثة التى ستتألف منها فيما بعد مملكة أرغون ، أما فى أقصى الشرق أى فى المنطقة الواقعة شمالى مصب نهر إبرو والتى تمتد عبر السهل الساحلى المؤدى إلى غالة وهى فرنسا ، وتستمر حتى مصب نهر الرون فقد كانت تسمى « سبتمانية » وقد ملكها العرب أول الأمر ثم تركوها بعد انهزامهم فى موقعة بلاط الشهداء ١١٤هـ/ ٧٣٢م وتمكنت مملكة الفرنجة من احتلالها فى نفس الوقت الذى قامت فيه الإمارة الأموية الأندلسية ، وأنشأت فيه ما عرف بالثغر الإسبانى وتحول فيما بعد إلى كونتينةٍ قطلونيةً ، ولم يحاول المسلمون إلا فى مناسباتٍ قليلةٍ استعادة قطلونية ، فظلت أرضاً نصرانيةً فرنجيةً أولاً ثم إسبانيةً بعد ذلك . وقد انضمت قطلونيةُ هذه فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى ونشأت عن ذلك مملكة

أرغـون الكبيرة ، التى تضـاعف حجمها بعـد استيـلاء ملـوكها على الثغـر الأعلى الأندلسـى وقاعـدته سرقسطـة سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨ م على يد ألفـونسو الأول المعروف بـالمحارب . وقد بلغت هذه المملكـة أوجها فى عهد ملكها « خـايمة » الأول المعروف بالكبير الذى تمكن من الاستيـلاء على شرق الأندلس حتى بلنسية وضم إلى بلاده الجزائر الشرقية المعروفة بالبليـار ، فأصبحت مملكة أرغون بذلك مملكةً واسعةً ثريةً ، تنافس فى سيادة شبه الجزيـرة مملكة قشتالة وليون التى توسعت على حساب المسلمين وأصبحت أقـوى دول الجزيرة بعد استيلاء ملكهـا ألفونسو السادس على طليطلة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥ م .

وعندما اتَّحَدَت مملكة قشتالة وليون مـع مملكة أرغون بزواج « إيزابلاّ » ملكة قشتـالة وليـون « بفيليب الثانـى » ملك أرغون ، أصبحت الممالك النصرانيـة هى القوة الرئيسيـة فى شبه الجزيرة ، خاصـة إذا ذكرنا قيام مملكـة البرتغال فى غرب شبه الجزيرة جنوب نهر الدويرو .

ومعنى ذلك أن تاريخ شبه الجزيرة فى العصور الإسلامية لا يقتصر على دول المسلمين بل يشمل دول المسلمين والنصـارى معا ، ولا يكتمل هذا التـاريخ إلا إذا درس المؤرخ الجانبين معا بنفس العناية والاهتمام ، لأن تاريخ شبه الجزيرة أيام الإسلام كان صراعاً متصـلاً على المصير ، والاقتصار على دراسـة الجانب العربى لا يعطى إلا نصف الصورة فقط . وإذا كنـا ندرس عُبَّاد الرحمن الثلاثـة : الداخل والأوسط والناصر لدين الله ، ونقفّى عليهم بتاريخ الحكم المستنصر وعصره الزاهر والمنصور محمـد بن أبى عامـر وما بلغـه الأندلس أيـامه من قـوة لا يكاد يقف فى وجهها أحد ، فإننـا ينبغى أيضاً أن نذكر أنـه كان فى الناحية الأخـرى كذلك ملوكٌ عظامٌ لهم أكبر الأثر فى تشكيل صورة الجزيرة ، بل انتهت قصة الأندلس بالصورة التى صـاغوهـا فيها ، من أمثـال ألفونسـو الأول والثانى والثـالث ملوك ليـون ، وسـانشو الكبير ملـك نبرة وألفونسـو الأول المحـارب ملك أرغـون . والفونسـو السادس ملك قشتالة وليون . والفونسو الثـانى ملك قشتالة وليون أيضاً وخايمة الكبير ملك أرغون ، « وألفونسو ـ أنريكى » ملك البرتغال .

لهذا يتعين على دارس الأندلس لكى تكون دراستـه صحيحةً وعلى أساسٍ ، أن يدرس إسبـانيا النصرانية كما يدرس إسبـانيا الإسلامية ، حتى يخرج فى النهـاية

بصورةٍ معقـولةٍ تفسر له السبب فيما نسميه عـادة بضياع الأندلس وهـذه أيضاً تسميةٌ خاطئةٌ لأن بلاد شبه الجزيرة إذا كـانت قد ضـاعت من المسـلمين فقد كسـبها آخـرون وما نسميه نحن ضياعاً إنما هو كسـبٌ بالنسبة لهم . وميزان الحكم فى النهـاية هـو قاعـدة الحياة على وجـه الأرض ، وهى أنها صراعٌ بين البشر والغلبة للأقوى والأصلح والقادر على الصمود ومواصلة الكفاح .

لهذا قلنا إن مـوارد تاريخ الأندلس تتكـون من روايتين ، الرواية العـربية أى الأصـول والمراجع المكتوبـة بـالعربيـة ، والـرواية غير العـربيـة أى المؤلفـات والمـدونات والوثائق وما يجرى مجراها المكتوب بغير العربية .

## الروايـــة العربيـــة :

كتب العرب فى الأندلس وعن الأندلس كثيراً جدًّا ولكن الجانب الأكبر مما كتب الأندلسيـون عن أنفسهم ضاع فى غمرة الصراع الطـويل بين المسلمين والنصارى على مصير شبه الجزيـرة ، فجزء منه فقـد كما يفقد الكثير من الكتب لقلـة نُسَخه ، وبعضها حملـه المهاجرون الأندلسيـون إلى مهاجرهم فتبدد معظمـه وبقى أقلّه ، وجزء آخر قضى عليه الإسبان والبرتغاليون بالإحراق والتدمير .

ولا غرابة والحالة هذه فى أننا لا نملك شيئاً كاملاً من مطوّلات تاريخ الأندلس ، وقد ألف الأندلسيون فى تاريخ بـلادهم مطولات كثيرة فلم يبق لنا منها إلا أطرافٌ نعثر عليها قطعاً فى المكتبات أو تفاريقَ فى كتبٍ ألفت فى عصورٍ متأخرةٍ فى المشرق .

ورغم ذلك فإن ما لـدينا من أصول التاريخ الأنـدلسى كثيرٌ وافرٌ والحمد لله ، ولقد قـال « غرسيه غومس » فى كتـابه الصغير المسمى « الشعر الأنـدلسى » وقد ترجمنـاه للعربية ، إننا لا نملك من دواويـن الشعر الأندلسى إلا عدداً قليـلاً جداً ، وبقية ما لدينا من ذلك الشعر إنما هى نثـارٌ كالنثار الذى يتبقى من تحطم إناءٍ من البلّور ، ومع ذلك فعلى أساس هذا النثار نستطيع أن نكتب تاريخ الشعر الأندلسى لأنه كـان من الوفـرة بحيث أن القليل الباقى منه يمكننـا من كتابـة تاريخٍ متصلٍ وكامل تقريباً للشعر الأندلسى .

وأهـــم أصـــول التاريـخ الأندلسى هو ما بقـــى لنا من كتـابات أحمد بن

محمدٍ الرازيِّ أبى التاريخ والجغرافية فى الأندلس ، وقد أشرنا إليها خلال كلامنا فى ببليوغرافية المغرب ، ومن ثم فلن نتحدث عنها هنا .

ومن حسن الحظ أن عميد مؤرخى الأندلس بعد محمد بن محمدٍ الرازى وابنه عيسى بن أحمد ، وابن حيان ، وهو أبو مروان حيان بن خلف بن صعب بن حيان ابن محمد بن حيان صاحب المقتبس ، المولود فى قرطبة سنة ٣٧٧هـ/ ٩٨٧م والمتوفى فيها سنة ٤٦٩ هـ/ ١٠٧٦م وقد وفاه حقه من الدراسة الدكتور محمود على مكى فى المقدمة الضافية التى كتبها للجزء الذى نشره من مقتبس ابن حيان ويتناول أواخر عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط وعصر ابنه الأمير محمد ونشره فى بيروت مع تعليقات وافية سنة ١٩٧٣ .

وقد نشر جزءًا من مقتبس ابن حيان ، « الأب ملشور أنتونيا » فى باريس سنة ١٩٣٧ ويتناول عصر الأمير عبد الله .

ثم نشر الدكتور عبد الرحمن على الحجّى فى بيروت سنة ١٩٦٥م جزءًا آخرَ من مقتبس ابن حيان يتناول خمس سنوات من عصر الحكم المستنصر .

وأخيراً نشر مستشرق إسبانى هو الدكتور « بدرو شالميتا سندرون » بالاشتراك مع الدكتور محمود صبح جزءًا كبيراً من المقتبس يتناول نحو عشرين سنةً من تاريخ عبد الرحمن الناصر لدين الله . وبهذا يكون بين أيدينا جانب لا بأس به من تاريخ ابن حيان للأندلس الذى يعتبر أحسن ما بقى لنا مما كتب فى ذلك التاريخ ، لأن ابن حيان استصفى فى كتابه هذا ، المقتبس ، ما كتبه مؤرخون كبار سابقون عليه من أمثال أحمد بن محمدٍ الرازى وعيسى بن أحمد الرازى ومعاوية بن هشام الشبانسى صاحب كتاب « تاريخ بنى أمية فى الأندلس » وأبى بكرٍ بن عبادة بن ماء السماء الذى ألف كتاب « تاريخ شعراء الأندلس » وأبو الوليد الفرضى وكان له كتاب كبير فى تاريخ الأندلس ، وسكن بن إبراهيم الكاتب وأبى عمر يوسف بن عبد البر وغيرهم .

ولابن حيان كتابٌ آخرُ يعتبر إلى الآن فى حكم المفقود وهو كتاب « المتين » ، وهو كتاب ألفه ابن حيان فى تاريخ عصره مطوّلاً وافراً بالتفاصيل ، وقد بدأه قبل كتابه المقتبس ثم قطعه عندما قامت الفتنة ثم أتمه بعد ذلك ، ودوّن فيه تراجم أهل عصره وأهم ما وقع فيه من أحداث ، وعصره هو عصر الطوائف أى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى .

وكما احتفظ لنا ابن حيان فى المقتبس ، بالكثير من قطع تاريخ الرازى وغيره ممن سبقه إلى كتابة تاريخ الأندلس ، كذلك احتفظ لنا مؤرخٌ أندلسىٌّ آخر هو «ابن بسّام أبو الحسن على الشنترينى » المتوفى فى قرطبة سنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م ، بقطعٍ كبيرةٍ من كتاب المتين لابن حيان ، التى تتناول نفراً كثيراً من كبار الشخصيات الأندلسية فى عصر الطوائف . وكتاب « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » لابن بسّام كتاب فى تاريخ الأدب الأندلسى فى عصر ابن بسّام ، وقد قسمه إلى ثلاثة أقسام : أدباء الموسطة أى وسط الأندلس ما بين شعراء وناثرين ، وأدباء غرب الأندلس ، وأدباء شرق الأندلس . وقد عثرنا على الكتاب كاملاً ونشرت منه أجزاء تتناول الموسطة والغرب وبقى منه جزء الشرق ، وتراجمه وتراجم ابن بسام وافية مطولة ، تلقى ضوءاً على أحوال الأندلس فى عصره وقد استوعب فى كلامه جانباً كبيراً مما كتبه ابن حيان فى « المتين » الذى ضاع .

ومن أصول تاريخ الأندلس التى لا يستغنى إنسان عن قراءتها ، كتابان صغيران ولكنهما على أكبر جانب من الأهمية : الأول هو كتاب « الأخبار المجموعة » لمؤلف مجهول وقد نشره مع مقدمةٍ ضافيةٍ المستشرق الإسبانى « لافونتى الكنتارا» فى مدريد سنة ١٨٦٧م ودرسه دراسةً مستفيضةً « خوليان ريبيرا » وهو من أعاظم المستشرقين الإسبان أو شيخ مدرسة المستشرقين الإسبان كما يسمى ، وخرج منه بأن ذلك الكتاب من تأليف عددٍ من الأندلسيين من أبناء البيوت الكبيرة الموالين للبيت الأموى ، تناوبوا على كتابته وسجلوا لنا أحداثاً موثوقاً فى صحتها على أكبر جانبٍ من الأهمية . ثم درس هذا الكتاب مستشرقٌ أسبانىٌّ آخرُ هو «سانشيت البورونوث » Sanchez Alboronoth وألف فيه كتاباً ضخماً فيه فوائدُ كثيرةٌ وإن كان فيه كذلك لغوٌ كثيرٌ لأن الرجل لم يكن يحسِن العربية ، رغم أنه يعتبر من أكابر مؤرخى إسبانيا ، وقد اقتحم ميدان الدراسات الأندلسية اقتحاماً .

والأصل الثانى هو كتاب « تاريخ افتتاح الأندلس » لأبى بكرٍ محمد بن القوطية ، المتوفى سنة ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م ، وهو كتابٌ عظيم القيمة لأن مؤلفه من حفدة « سارة » القوطية حفيدة غيطشة الذى غصبه لذريق عرش الأندلس وكان أبناؤه من أعوان المسلمين فى فتح تلك البلاد ، وقد قصدت « سارة » الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك فى دمشق لتشكو إليه ظلامة أصابتها فأكرمها

وزوَّجهـــا أحدَ مواليه ، وأبـو بكرٍ محمـد بن عمـرَ بن عبد العزيـز المعـروف «بابن القوطية » الذى نتحدث عنه ، هو أحد أحفاد ذلك المولى .

كان ابن القوطيـــة عالماً بالنحو حافظاً للغة متقدمـاً فيها على أهـل عصره كما يقول ابن الفـرضى ، وكان شـاعراً سلس القـريض ، وهو تلميذ أبـى عمرَ بن لبابة الفقيه الأندلسى الكبير ، والكتاب لا يقتصر على تاريخ افتتاح الأندلس ، وإنّما هـو مجموعـةٌ من الأخبار عن أمـراء الأندلس وخلفـائه ، مرويـةٌ فى نسقٍ متصلٍ متناسقٍ ، والنسخة التى بقيت لنا هى سماعٌ من أحد تـلاميذه ، ومادة هذا الكتاب أصيلةٌ يوثق فيها ، لأن ابن القوطيـة مثله فى ذلك مثل معظم أهل الفكر فى الأندلس ، كان من المتحمسين لبنى أميـة الأندلسيين ، شـديد الصلة بهم وبـرجال دولتهم ، ولهذا فإن الأخبار التى يوردها على جـانبٍ كبيرٍ من الأهمية . وقد نشر ذلك الكتاب « بسكوال دى جايانجوس » Pascual de Gayangos وترجمه إلى الإسبانية ترجمةً بليغـةً تعتبر قطعة أدبيـةً « خوليـان ريبيرا » Julian Ribera الذى قلـنا إنه شيخ مدرسة المستشرقين الإسبان .

وتلا هـذه الأصول ذات القيمة التـــاريخية العظيمـة ، كتب ألفت فى عصورٍ متأخرةٍ ، حفظت لنا الكثير مما ضاع من أصول التاريخ الأندلسى وأهمها :

ـــ « نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب وذكـر وزيرهـا لسان الـدين بن الخطيب » ، ومـؤلفـه أبو العبـاس أحمد بن محمـدٍ التلمسانـى المقرىّ المتـوفى فى القاهرة فى جمادى الآخرة سنة ١٠٤١هـ/ ١٦٣٢م . وقد نشر هذا الكتاب أكثر من مرةٍ ، فنشر فى مطبعة بولاق ، ثم نشر القسم الأول منـه فى مجلدين كبيرين نفرٌ من المستشرقين فى هولندا على رأسهم المستشرق المشهـور « راين هارت دوزى » ، ثم أعاد نشره كاملاً « محيـى الدين عبد الحميد » فى القاهرة سنـة ١٩٥٠م وما بعدها بدون فهارسَ فى ثمانيـة مجلداتٍ ، ثم نشره أخيراً نشرةً كاملةً بفهـارسَ الدكتـــور «إحسان عبـاس » فى بـــيروت سنة ١٩٦٨م فى ثمانيـة مجلداتٍ بما فى ذلـك جزء الفهارس .

هذا الكتـاب فريدٌ فى بـابه لأن قصد مـؤلفه فى أول الأمر كـان الترجمة للسان الدين ابن الخطيب الـوزير الغـرناطى المعروف ، الـذى سنتحدث عنـه فيما بعد ، ولكن المقرىّ التلمسانى الذى وفـد على الشرق فى تلمسان فى عصرٍ كثر الحديث فيه

عن الأندلس ومحنتها ، رأى أن يقدم لتاريخ ابن الخطيب بمقدمةٍ وافيةٍ عن الأندلس ، بلغت أكثر من نصف الكتاب ، وهى وحدها تقع فى أربعة مجلداتٍ كبارٍ ، وقد ألف الرجل هذا الكتاب على طريقة الجمع والتصنيف وتأليف المقتبسات بعضها مع بعض ، ومعظمه نقول تتراوح بين فقراتٍ قصيرةٍ إلى كتبٍ كاملةٍ . وقد قسم الرجل القسم الأول من كتابه الذى يتناول تاريخ الأندلس إلى فصولٍ طوالٍ : الأول فى صفة جزيرة الأندلس ، وهو وصفٌ أدبىٌّ تاريخىٌّ يختلط فيه الشعر بالنثر ، ولكنه يضم مادة جغرافية ذات قيمة كبرى ، والفصل الثانى يتناول افتتاح الأندلس بتطويلٍ وجمعٍ حافلٍ بالفوائد ، ثم يخصص فصلين لما جادت به قرائح الأندلسيين من بديع الشعر والنثر ، ثم يفرد فصلاً لقرطبة ومحاسنها ، وفصلين الأول منهما لمن وفد على الأندلس من الشرق والثانى لمن انتقل من أهل الأندلس إلى المشرق ، والتراجم هنا مستفيضةٌ ممتعة ، وفى أثناء ذلك يقصد الرجل جانباً كبيراً من تاريخ الأندلس السياسى والأدبى ثم يختم هذه المقدمة الطويلة بفصلٍ عن ضياع الأندلس يذكر فيه الأحداث الأسيفة التى انتهت بخروج ذلك القطر من عالم الإسلام .

أما الجزء الخاص بابن الخطيب فيقع فى ثلاثة أجزاءٍ ، ويتناول تاريخ ذلك الوزير الأديب الشاعر المؤرخ بتفصيلٍ كبيرٍ ، ويتحدث عن عصره ومعاصريه وشيوخه وتلاميذه ، ويورد نماذجَ كثيرةً من كلام ابن الخطيب ومعاصريه .

والكتاب على هذا النحو خليطٌ لا يستريح الإنسان إليه أحياناً ، لأن الرجل يجرى فيه على طريقة الاستطراد ، فقد يكون فى سياق ترجمة رجل ثم يمر ذكر رجلٍ آخرَ فيترجم له بعد أن يقطع الترجمة الأولى ، ثم يعود إليها بعد نحو عشرين صفحةً أحياناً ، ولكن الذى يستوقف النظر أن الكتاب طريفٌ جدًّا ، لأن هذا الاستطراد ينقل الإنسان من جوٍّ إلى جوٍّ ، ومن موضوعٍ إلى موضوعٍ ، وينتهى القارئ فى النهاية بصورةٍ واضحةٍ جدًّا عن الأندلس ، تكونت من مقتبساتٍ وضعت حطباً بليلٍ فى بعض الأحيان ولكنها تعطى فى النهاية صورةً متكاملةً على الطريقة الفنية المعروفة باسم « الجشتالت » أى الصورة العامة .

ويشبه هذا الكتاب من كتب المقرىّ كتاب « أزهار الرياض فى أخبار عياض »

وهو القاضى « عياض بن موسى اليحصبى » المغربى الأندلسى الذى نذكر له كتاب « الشفا بالتعريف بحقوق المصطفى » .

ويقع هذا الكتاب فى ثلاثة مجلداتٍ ، وقد نشر فى القاهرة بتحقيق « مصطفى السقا وإبراهيم الإبيارى وعبد الحفيظ شلبى » ( ١٩٣٩ ـ ١٩٤٢م ) وفى هذا الكتاب أيضا الذى أداره المقرىّ على القاضى عياض يتبع نفس الطريقة ، الاقتباس والاستطراد والجمع والتوفيق ، ولكنه يعتبر كذلك من أوثق ما لدينا عن الأندلس فى عصوره المتأخرة ، لأن المقرىّ عندما ذكر تلاميذ عياض استرسل حتى وصل إلى قرب نهاية الأندلس ، ومادة هذا الكتاب مثلها مثل مادة نفح الطيب موثوقٌ فيها لأن المقرىّ كان صدوقاً قوىَّ الذاكرة يعتمد على أصولٍ حملها معه وإن كان هو نفسه يزعم أنه كتب كل ذلك من ذاكرته .

ومن المراجع الأساسية التى نعتمد عليها فى كتابة تاريخ الأندلس كتاب «البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب » ، لابن عذارى المراكشى المتوفى بعد سنة ١٧٢هـ/ ٧٨٨م ، وقد تحدثنا عنه فى كلامنا عن مراجع تاريخ المغرب ، ونضيف هنا أن ابن عذارى خصص للأندلس معظم كتابه الذى يتكون كما ذكرنا من خمسة مجلداتٍ : الأول عن تاريخ المغرب إلى آخر أيام دولة بنى زيرى الصنهاجيين ، مع فصولٍ معترضةٍ ذات أهميةٍ كبرى عن فتراتٍ من تاريخ المغرب ونواح نواحيه تتخطى ذلك التاريخ ، والجزء الثانى يتناول تاريخ الأندلس إلى موت المنصور محمد بن أبى عامرٍ ، والجزء الثالث يتحدث عن عصر الطوائف ، والجزء الرابع صغيرٌ يجمع ما عثرنا عليه من تاريخ المرابطين وهو جزءٌ ناقص سقط منه نحو خمسين سنةً من تاريخ هذه الدولة تتعلق بمعظم أيام يوسف بن تاشفين ، والجزء الخامس يتناول تاريخ الموحدين ، ومعنى ذلك أن معظم هذا الكتاب يدور على تاريخ الأندلس ، ومن هنا كانت أهميته بالنسبة لنا ، ويتميز الكتاب كما ذكرنا بأن صاحبه ينقل قطعاً كاملة من مؤلفات أصيلةٍ ضاعت الآن ، وإذا ذكر شيئاً من عنده فإننا نجده اختصاراً من مؤلفات ذات قيمةٍ أصيلةٍ ، والكتاب على هذا فى جملته يعتبر من الأصول ، وإن كان قد ألف فى زمنٍ متأخرٍ ولا يستغنى عنه أى دارسٍ لتاريخ الأندلس ، وإن كنا فى حاجة إلى طبعةٍ جديدةٍ للجزء الخامس الخاص بالموحدين ، وفهارسَ ضافيةٍ لذلك الكتاب .

ثم تلا ذلك فى الأهمية المكتبة الأندلسية ويراد بها مجموعةً من كتب التراجم التى ألفها علماء من أهل الأندلس عن علماء بلادهم ، وهذه المجموعة تترابط فيما بينها وتتكامل على مثال ما تتكامل كتب الوفيات فى المشرق ، فمن المعروف عندنا أن هناك سلسلة من كتب الوفيات أُلّفت فى المشرق ، تتناول التراجم من أول عصور الإسلام إلى العصر المملوكى . فهناك « وفيات الأعيان لابن خلكان » ثم يكمله « فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى » ثم يواصله ويستدرك فواته كتاب «الوافى بالوفيات لابن أيبك الصفدى » ، ثم نختتم السلسلة بكتاب « المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى لأبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى » .

كذلك فى الأندلس نجد سلسلةً من كتب التراجم ألفها علماء أندلسيون أجلاّءٌ يكمل بعضها بعضاً ويسد بعضها فوات بعض ، وقد بدأ ينشر هذه السلسلة المستشرقون الإسبان الأوائل من أمثال « فرنسيسكو كوديرا » و « خوليان ريبيرا» ومن فى طبقتهما ، وهذه الكتب هى :

ـ « تاريخ علماء الأندلس » للحافظ أبى الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصرٍ الأزدى بن الفرضى ( ٣٥١ ـ ٤٠٣هـ/ ٩٦٢ ـ ١٠١٣م ) وقد حققه فرنسيس كوديرا ونشره فى مدريد سنة ١٨٨٦ وأعيد تحقيقه وطبعه فى القاهرة سنة ١٩٦٦م .

ويمتاز أبو الوليد بن الفرضى بأنه من العلماء الأثبات ، فقد كان مؤرخاً وفقيهاً وشيخاً جليلاً صدوقاً ومن ثم فنحن نثق فى كلامه ، ولم يبق لنا من مؤلفاته الكثيرة فى التاريخ إلا ذلك الكتاب القيم ، الذى يتناول تاريخ علماء الأندلس من أول الفتح إلى سنة ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩ م .

ـ « بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس » لأحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبّى المتوفى فى مرسية فى ٢٥ ربيع الآخر ٥٩٩هـ/ ١٢٠٣م . وهو يواصل تراجم ابن الفرضى ويهتم اهتماماً خاصاً بأهل العلم والأدب . وقد اعتمد هذا الرجل فى تراجمه على كتاب « جذوة المقتبس للحميدى » الذى سنتحدث عنه بعد قليل .

ـ « جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس » للإمام الحافظ أبى عبد الله محمد

ابن أبى نصرٍ فتوح بن عبد الله الأزدى الحميدى وهو من أهل ميورقة . وقد توفى فى بغداد سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م وقد نشر ذلك الكتاب بعناية محمد بن تاويت الطنجى فى القاهرة سنة ١٩٦٦م وكان الحميدى تلميذاً لابن حزم ، وقد ألف كتابه هذا فى المشرق ولهذا نلاحظ أن تراجمه تشوبها بعض الأخطاء ، لأنه كتب بعيداً عن وطنه ومراجعه ، ولكن الكتاب فى مجموعه عظيم القيمة ، وقد اعتمد عليه الضبى اعتماداً كاملاً حتى إننا نجد تراجم هذا الأخير نقلاً حرفياً عن جذوة الحميدى .

ـ كتاب « الصلة » لأبى القاسم خلف عبد الملك بن سعود بن بشكوال الأنصارى ( ٤٩٤ ـ ٥٧٨هـ/ ١١٠١ ـ ١١٨٣م ) وابن بشكوال من أعاظم علماء الأندلس وكان شيخ عصره حفظاً وصدقاً ورواية ، وكانت له مشاركةٌ فى التاريخ إلى جانب الفقه ، وكتابه هذا الذى يعتبر صلةً ، أى إكمالاً لتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى ، لا يقل أصالةً أو صدقاً عن تراجم ابن الفرضى ، بل إن تراجمه تمتاز بأنها أطول وأكثر تفصيلاً ، وقد نشر هذا الكتاب فى مدريد أولاً ثم أعيد نشره فى القاهرة سنة ١٩٦٦م على تحقيق مدريد .

ـ « صلة الصلة » لأبى جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير ( ٦٢٨ ـ ٧٠٨ هـ/ ١٢٣١ ـ ١٣٠٨م ) وهذا الكتاب يواصل تراجم ابن بشكوال ويكمل فوائده وقد نشره ليفى بروفنسال فى الرباط سنة ١٩٣٧م .

ـ « التكملة لكتاب الصلة » لأبى عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى المعروف بابن الأبار ( ٥٩٥ ـ ٦٥٨هـ/ ١١٩٩ ـ ١٢٦٠م ) .

وقد كان ابن الأبار من أعلم أهل الأندلس فى عصره وأكثرهم حفظاً وتدقيقاً وأصدقهم روايةً ، وقد كتب كتابه هذا التكملة ، ليكمل تراجم ابن الزبير فى كتاب الصلة ولكنه زاد عليه واستوسع بحيث أصبح كتاب التكملة من أوسع كتب التراجم الأندلسية التى لدينا ـ وقد نشر منه جزءان فى مدريد ضمن المكتبة الأندلسية سنة ١٨٨٧م ثم عثر « الاركون » المستشرق الإسبانى على قطعة أخرى منه نشرت ضمن مجلد يضم أصولاً عربيةً أندلسيةً مختلفة ، تحت عنوان Mice-lenea فى مدريد ، وبعد ذلك عثر « محمد بن أبى شنبر » العلامة الجزائرى على قطعةٍ كبيرةٍ فى أول الكتاب تضم فاتحته وحرف الألف والباء ونشرها فى الجزائر .

ولا بد من جمع هذا الكتاب كاملاً ، ونشره فى نسقٍ واحدٍ ، لأن تراجمه تمتاز

بما تمتاز به مؤلفات ابن الأبـار من علمٍ واسعٍ وحفظٍ دقيقٍ وتنبُّهٍ يستوقف النظر إلى حقائق الأمور .

ـ « الذيل والتكملـة لكتابى الموصول والصلة » لأبى عبـد الله محمد بن محمد ابن عبد الملك الأنصارى الأزدى المراكشى المشهـور باسـم عبـد الملك المراكشى (٦٣٤ ــ ٧٠٣هـ/ ١٢٣٦ ـ ١٣٠٤م ) ويعتبر هـذا الكتـاب أوسع كتب التراجم الأنـدلسية والمغـربيـة ، فهذا الـرجل ألف كتـابـاً واسعاً فى التراجم تقع نسختـه المطبوعة فى خمسة مجلداتٍ ( ولم تتم بعد ) وقد قام على تحقيقها الدكتوران محمد ابن شريفـة وإحسان عبـاس ، وبـدأ صـدور المجلدات فى بيروت سنـة ١٩٦٤م . والميـزة الكبرى لهذا الكتاب أن معظـم تراجمه تتعلق بـرجـالٍ من أهل عصره ، أى القرن السـابع الهجرى / الثالث عشر الميـلادى ، وهو من العصور الغـامضة فى تاريخ الأندلس ، وتـراجمه مطولةٌ وتقدم لنا إشـارات ذات قيمةٍ اجتماعيةٍ كبيرةٍ ، وقد بلغ من حـرص الرجل على التطويل وإيـراد كل ما عنده ،إنـه فى أحيانٍ كثيرةٍ يورد نصوصَ كتبٍ كـاملةٍ وإن كانت صغيرةً ، ولكننا ونحن نقـرؤه نعيش فى جو أهل العلم فى الأنـدلس فى القرن السابع الهجـرى الذى تجلّت فيـه علامـاتُ نهايةِ الأندلسِ وضيـاعه ، وفى هذا العصر أيضـا قامت مملكة غـرناطة . ومـمـا يستوقف النظر أن أولئك العلماء الـذين يترجم لهم كانـوا ماضين فى دراسـاتهم ورواياتهم منفصلين تقريبـاً عن الحياة السيـاسية فى الأنـدلس ، ومن يقرأهـم لا يكاد يحس بالمأساة الدائرة حولهم .

ـ ويكمل هـذه المجموعـة من كتب التراجم كتاب « الحلّـة السيراء »لابن الأبار الذى ذكـرناه، وقـد نشر فى القاهرة فى جـزءين سنة ١٩٦٣م بتحقيق كـاتب هذه السطور ، وقـد جمع فيه ابن الأبار تـراجم الخلفاء والأمـراء والرؤساء الـذين أثر عنهم شعر يـروى ، وقد ألفه تقرُّباً لأبى زكـريا الحفصى بعد هجرتـه إلى تونس ، وتراجمه طويلةٌ مستفيضةٌ وأسلوبه جـزلٌ متدفقٌ والرجل حافظٌ واعيةٌ ، وقد تنبه إلى أهميـة ذلك الكتـاب الـذى يضم حشداً كبيراً مـن تراجم الـرؤسـاء فى المغـرب والأنـدلس ، المستشرق راين هـارت دوزى . ونشر تـراجمه الأنـدلسيـة فى كتـابٍ مشهـورٍ بين أيـدى دارسى الأنـدلس ، ثم نشر جزءا كبيراً مـن تراجمه المغـربيـة المستشرق « ماركوس ملر » ، ثم نشر النشرة الكاملة التى ذكرناها آنفاً .

ونختم الكلام عن أصول التاريخ الأندلسى بوقفةٍ عند آخر الكبار من مؤرخى الأندلس وهـو « لسان الـدين أبو عبـد الله محمد بن عبد الله بن سعيـد بن على بن أحمد السلمانى بن الخطيب » ( رجب ٧١٣ ـ ٧٧٦هـ/ ١٣١٣ ـ ١٣٧٤م ) .

وابن الخطيب بلا شكٍّ من أعاظم مفكرى الأندلس وكبار كتابه وشعرائه ، وقد عاش فى العصر الغرناطى فى أيام محمـدٍ الغنى بالله ووزر له وتولى أكبر المناصب ، وله حياةٌ حافلةٌ بالعمل العلمى والنشاط السياسى ، حتى ليصعب على الإنسان أن يفكر فى أن هـذا كله تم فى حياة رجل واحـد ، وقد تـرجم له الأستاذ محمـد عبد الله عنان ترجمةً وافيةً فى كتابٍ خاصٍ به متداولٍ بين أيدى الناس .

وقد ألف ابن الخطيب كتبـاً كثيرةً فى تاريخ الأندلس تعتبر عندنـا من الأمهات ويهمنا هنا أن نذكر منها كتابين :

الأول : هو « إعلام الأعلام بأعمال الأعلام ممن بويع قبل الاحتلام » ، ويعرف عادةً باسـم « أعمال الأعلام » ، وهو كتابٌ ضخمٌ يقع فى أجـزاءٍ كثيرةٍ ، يهمنا منها القسم الثـانى الذى نشره ليفى بـروفنسـال فى بيروت سنة ١٩٥٦م تحت عنـوان «تاريخ إسبانيا الإسلامية » وهو من أحسن كتـب تاريخ الأندلس عندنا ، فقد كتبه الرجل عن علمٍ ودرايةٍ ، واحتشـد فى تأليفه فجاء من أحسن ما لـدينا من المؤلفات التى لا يستغنى عنها دارس تاريخ الاندلس .

والقسم الثالث من ذلك التـاريخ يتناول تـاريخ المغرب الإسلامى وقـد حققه ونشره د.أحمد مختار العبـادى والأستاذ محمد بن إبراهيم الكتـانى ونشر فى الدار البيضاء سنـة ١٩٦٤ بعنوان « تاريخ المغـرب العربى فى العصر الـوسيط » وهذا الجزء لا يقارن ـ بحال ـ بالقسم الثانى الذى كتبه ابن الخطيب عن الأندلس ، فهو تاريخٌ ناقص مضطرب السيـاق ، يبدو أن ابن الخطيب كتبه على عجلٍ ؛ ولكنه على أى حالٍ لا يخلو من فوائدَ تاريخيةٍ بين الحين والحين .

أما القسم الأول من ذلك الكتاب فيدور حول تاريخ المشرق وهو لم ينشر بعد، وهو يخرج عن اختصـــاصنا هنا ، ولكـــننا اطّـــلعنا عليـه على أية حالٍ ، وليس فيه ما يضيف كثيراً إلى تاريخ المشرق .

أمـا الكتاب الجليل الـذى يُعدّ مفخـرةً لابن الخطيب فهو « كتـاب الإحاطـة فى أخبار غرناطة » وهو كتابٌ ضخمٌ ، تقع نسخته المطبوعة فى أكثر من ألفى صفحةٍ ،

تضم تاريخاً وافياً للأندلس وخاصةً إقليم غرناطة ، وهو يبدأ بمقدمةٍ ضافيةٍ عن مملكة غرناطة ووصفها الجغرافى الذى يجعل لابن الخطيب مكاناً صدراً بين الجغرافيين الأندلسيين ، ثم تلا ذلك التراجمُ الوافيةُ الضافيةُ لمئات من العلماءِ وكبار الشخصيات الأندلسية الغرناطية فى الغالب . وقد قام على تحقيقه بصبرٍ يدعو للإعجاب الأستاذ محمد عبد الله عنان ونشره فى أربعة أجزاءٍ فى القاهرة ابتداءً من سنة ١٩٧٤م وذلك بعد أن كان الموجود لدينا منه طبعةً هزيلةً صغيرةً نشرت فى القاهرة قبل ذلك .

تلك هى أهم أصول تاريخ الأندلس التى ينبغى أن يدرسها مؤرخ ذلك القطر ، وهناك كذلك كتبٌ أخرى تسمو إلى مراتب الأصول مثل مؤلفات ابن حزم التاريخية ، وكتاب عبد الواحد المراكشى فى تاريخ الموحدين ، ولكننا آثرنا أنْ نقتصر على هذه دون غيرها مكتفين بأن نذكر بقية الأصول الأندلسية ضمن بيانِ المراجع الذى سنورده فى آخر هذا الكتاب .

## الأصول غير العربية :

قلنا إن مؤرخ الأندلس لابد أن يكون على علمٍ بالأصول والمراجع غير العربية التى كتبت فى تاريخ الأندلس وشبه الجزيرة الإيبيرية بصفةٍ عامةٍ وخاصة ما كتب منها بالإسبانية ، وقد سبق أن بينا أسباب ذلك .

وقد كتب الإسبان فى تاريخهم كثيراً جداً وعندهم كما عندنا أصولٌ ومراجع . فأما الأصول فما كتب فى العصور الوسطى ومعظمه ألفه رهبان بدأوا فى كتابة تاريخ إسبانيا فى القرن الحادى عشر الميلادى وهم فى العادة يكتبون تواريخَ عامةً أى تواريخ للبشر جميعاً منذ الخلق ، كما كان يفعل بعض مؤرخى المسلمين . وهم فى العادة يكتبون من ناحيةٍ دينيةٍ ، أى أنهم معادون للمسلمين عداء شديداً لا على أساسٍ قومىٍّ بل على أساسٍ دينىٍّ ، وهم بطبيعة الحال لا يعرفون عن الإسلام شيئاً ، لأنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء محاولة هذه المعرفة ، مع أنهم كانوا يعيشون قريبين من المسلمين ، ولا نقول أنهم كانوا يعيشون بينهم ، لأن أولئك الرهبان المؤرخين الأوَل كانوا يكتبون وهم يعيشون فى بلاد إسبانيا النصرانية

مباعدين للإسلام منكرين إياه . وأقدم من كتب ووصلتنا كتابته مؤلفٌ مجهولٌ كتب تاريخاً ينسب إلى« البلدة » وعنوان هذا التاريخ Cronica Albeldinse وقد ألف سنة ٨٨٣ م ، وهو مجرد جدولٍ بالحوادث وأسماء الملوك ، مع ذكر قليلٍ لأخبار الصراع بين المسلمين والنصارى . وهذه الأخبار القليلة ذات فائدةٍ كبيرةٍ لأنها تضبط لنا تواريخَ ومراحلَ ذلك الصراع وتسد الفراغات التى يمكن أن تكون قد خانت المؤرخين المسلمين .

ومن تلك المؤلفات الإسبانية الأولى تلك المعروفة باسم تاريخ العالم الذى كتبه « لوقا التودى » Lucas de Tuy : Historia Mundi وقد فرغ من تأليفه سنة ١٢٣٦م وهو يعطينا بياناتٍ وافيةً عن ملوك القوط وملوك ليون ثم ملوك قشتالة وليون إلى عصره .

وقد عاصره تقريباً مؤرخٌ إسبانىٌ عظيم الأهمية بالنسبة لنا يسمى Rodrigo Jimenez de Rada ، وكان أسقفاً لطليطلة وقد كتب تاريخاً مطولاً لإسبانيا حتى قرب وفاته سنة ١٢٤٧ م ، وهذا الرجل يعطى تفاصيل مفيدةً جداً بالنسبة لتاريخ قشتالة وليون والممالك النصرانية الأخرى ، وكذلك بالنسبة لتاريخ الأندلس واسمه Rerum in Hispania Gestorum Cronicon وقد نشر أول مرّة فى غرناطة سنة ١٩٤٥م وأعاد نشره A. Schott فى مجموعته المسماة Hispania Illustrata الجزء الثانى من ص ٢٥ إلى ١٩٤ .

وقد اعتمد عليه الكثيرون جداً من مؤرخى إسبانيا النصرانية حتى قرابة العصر الحديث ، ولا يستغنى مؤرخ الأندلس عن مراجعة ذلك الكتاب فى كل ما يتعلق بالعلاقات بين إسبانيا النصرانية وإسبانيا الإسلامية . ومن هذا الطراز من الأصول الإسبانية كتب ألفها مستعربون ممن كانوا يعيشون بين المسلمين ويكتبون باللاتينية أو مستعربون هاجروا إلى إسبانيا النصرانية ، وهناك كتبوا مدونات فى التاريخ . ومن هؤلاء مؤرخ يسمى « إيزيدور الباجى » الذى كتب كتابا فى تاريخ مملكة أشتريس منذ بدايتها ويسميه الأب فلوريت بالمدونة الباجية Cronica Pacense وهو يعرف أحياناً باسم La Cronica Mazarabe de 724 ويسمى هذا الكتاب أحياناً باسم Cronica del Anonimo de Cordoba لأن بعضهم يظن أن المؤلف كتب كتابه فى قرطبة ، ويسمى أحياناً : Continuatio

Hispana لأنهم كانوا يظنون أنه إكمالٌ لتاريخ كتب قبله لإسبانيا القوطية ، ويغطى هذا الكتاب الحوادث من سنة ٦١١ ـ ٧٥٤ ميلادية .

ومن الأصول الجديرة بالثقة مدونة ألفها قس أشتورى يسمى El Beato de Liebana وقد سجل هذا الكتاب الخصومة المذهبية التى وقعت أثناء العصور الإسلامية بين كنيسة طليطلة وكنيسة إشبيلية التى تزعمها قسٌ مستعربٌ يسمى Elipando وقد ذكرنا مدونة « البلدة » التى تنسب إلى الموضع الذى عثر عليها فيها وهى قرية « البلدة » فى إقليم « ريوخا » وهذه المدونة تصل بتاريخ أشتريس وليون إلى سنة ٩٧٦م ، أى إلى عصر الحكم المستنصر ، والمؤلف معاصرٌ لألفونسو الثالث ملك أشتريس وليون المعروف بالكبير والمتوفى سنة ٩١٠م وقد أطلق عليه هذا الاسم « مومسن » وهو علَّامَةٌ ألمانىٌ تخصص فى الدراسات الرومانية وكتب فى تاريخ الرومان كثيراً ونشر الكثير من المخطوطات المتعلقة بتاريخ الرومان ، وله مجلدٌ ضخمٌ جمع فيه المخطوطات الإسبانية التى تناولت تاريخ الرومان والقوط ومن بينها مدونة « البلدة » هذه ، والمؤرخ الألمانى « تيودور مومسن » يسمى هذا الكتاب « الذيل الأبيض » Epitome Ovitense .

ومن هذا الطراز من المدونات مدونةٌ تخص تاريخ إسبانيا فى عصر الملك «ومبا » حتى موت أردنيو الأول ( ٦٧٢ ـ ٨٦٦ هـ/ ١٢٧٣ ـ ١٤٦١م ) ملك أشتريس وهذه المدونة تنسب إلى الملك ألفونسو الثالث الملقب بالكبير ، وإن كان هناك شك فى تلك النسبة ، لأن الباحثين الإسبان عثروا منها على مخطوطتين ، إحداهما مكتوبةٌ بأسلوبٍ سيّئٍ حافلٍ بالأخطاء ، ويظن أن تلك هى التى كتبها ألفونسو الثالث بنفسه ، ومخطوطة أخرى منمقة مهذبة يظن أن قسًّا يسمى سبستيان قام بعملها وهذه المخطوطة تقص بالتفصيل تاريخ إسبانيا النصرانية حتى بدايات حكم ألفونسو الثالث وهى تنسب عادةً إلى الراهب سبستيان الذى أشرنا إليه .

وتشبه هذه المدونة ، مدونةٌ تنسب إلى راهبٍ يسمى « سام بيرو » ولهذا تسمى Cronica de Sampiro ، وقد عاش هذا الرجل فيما بين عامى ٩٧٠ ـ ١٠٤٢ م وقد عمل فى القصر فى أيام الملك برمودو الثانى وخلفه ألفونسو الخامس ثم أقيم قسًّا لمدينة أشترقة وكان الذى أقامه هو الملك سانشو الكبير Sancho el Mayor

ملك نبرة ، وهـذا التاريخ يبـدو وكأنـه إكمالٌ لمدونة ألفـونسـو الثالث ، ويتنـاول الأحداث فى عصر هذا الملك حتى بدايات حكـم ألفونسو الثالث ملك ليـون ( ٨٦٦ ـ ١٠٠٠م ) .

ويجد القـارىء بيانـاً بهذه المدونـات الأساسيـة بالنسبـة لتـاريخ إسبانيـا والأندلس فى الفصل الأول مـن الجزء السادس من « تاريخ إسبـانيا العـام » الذى أشرف على كتابته الأستاذ « مننديث بيـدال » الذى سنذكره فيما بعد . ولهذا نكتفى بهذا القـدر الذى ذكـرناه عن الأصـول ، ونضيف أن راهبـاً إسبانيًـا يسمى الأب «فلـوريت » جمع هذه المدونـات كلها ونشرهـا فى سلسلة من نحـو ثلاثين مجلـداً تسـمى « إسبانيا المقدسة » El Padre Florez, Espana Sagrada ولا بد لأى باحثٍ فى تاريخ الأندلس من أن يرجـع إلى ذلك المجموع وإلى المجموع الذى نشـره « مومسن » وأشرنا إليه .

وننتقل الآن إلى المراجع أى إلى المؤلفـات الإسبـانيـة التى كتبهـا الإسبـان فى العصور الحديثـة فى تاريخ بلادهم ، وهى كثيرةٌ جداً ومعظمهـا جيدٌ وإن اختلفت فى القيمة ووجهة النظر ، ونشير منها إلى مايلى :

- Jeronimo Zurita, Anales de la Corona de Aragon

وقد عاش الأب ثوريتا فيما بين سنتى ١٥١٢ ـ ١٥٨٠م .

- Bernardo Brito, ( 1569 - 1671), Monarquia Lusitana Historia de Espana .

وهناك مجموعةٌ من الكتب يحمل كل منها اسم « تاريخ إسبانيا » مع مفارقاتٍ يسيرة فى هذا العنوان ، وأهم مؤلفيها :

Ambrosio de Morales - Esteban de Garibay -

P. Juán de Mariana - Juán de Ferreras -

Juan Francisco Masdeu - Alejandro Herculano -

Antonio Alcala Galiano - Modesto Lafuente y Rafael Alcantara .

ومن أهم التواريخ العـامة لإسبـانيا التى لا بد من الـرجوع إليهـا فى التاريخ الأنـدلسى مما كتب فى الخمسين سنـةً الماضية ، ولا زال يعـاد طبعها وتنقيحهـا

لتساير تطور الأبحاث التاريخية :

- Antonio Ballesteros Beretta, Historia de Espana y su Influencia en la Historia Universal ( 12 vols. Barcelona 1918 - 1941 ) .

- Luis Pericot, Historia de Espana. Gran Historia General de los Pueblos Hispanicos, ( 6 vols. Barcelona 1935 - 1962 ).

- Ramon Menendez Pidal, Historia de Espana. ( Espasa - Calpe ) 8 vols. Madrid 1935 - 1958 .

وهـذان التأريخان اشترك فى كتـابة فصـولهما عـددٌ كبيرٌ من المؤرخين تحت إشراف العـالمين المذكورين ، وتختلف القيمـة العلميـة لفصولهما اختـلافاً بَيِّنـاً . وجديرٌ بالذكر أن المجلدين الرابع والخامس من التاريخ الذى أشرف على تحـريره « رامون مننذث بيدال » يتناولان تاريخ الأندلس وحضارته ، وهما ترجمة إسبانية لكتاب :

- Levi - Provincal, Histoire de l'Espagne Musulmane .

الطبعـة الثانيـة ـــ باريس سنـة ١٩٥٥م ومـا بعدهـا . وقـد قام بـالترجمة الإسبانية المستشرق المعروف « إميليو غرسيه غومس » .

- Pedro Aguado Bleye, Historia de Espana. 3 vols. Madrid 1947 - 1958 .

ويعتبر هـذا الكتاب من أحسـن الكتب المتوسطـة الحجم التى ألفت فى تـاريخ إسبانيا ، والفصول الخاصة بالأندلس الإسلامى فيه جيدةٌ .

- Fernando Soldevila, Historia de Espana. 8 vols. Barcelona 1952 - 1959 .

ومؤلف هـذا الكتاب قطلـونىٌّ ، وهو لهذا ينظـر لتاريخ إسبـانيا من الـزاوية القطلونية ، والفصول الخاصة بالأندلس فيه تُقرأ بحذرٍ شديدٍ .

- Luis Garcia de Valdeavellano, Historia de Espana ( Madrid 1955 ) .

- Jaime Vicens Vives, Historia Social y Economica de Espana y America ( Barcelona, 1957 - 1959 ) .

أمـا الكتب المؤلفـة فى عصـور بعينها أو مـوضـوعـات محددة من التـاريخ الإسبانى ـ بما فى ذلك الأندلس ـ فكثيرة جداً يجد القـارىء بياناً بها فى ببليوغرافية كل تاريخ عام ممـا ذكرناه ، وخاصة التاريخ الذى كتبـه « بايستروس » والتاريخ الذى أشرف عليه منـدث بيدال ، فإن قوائمهما الببليوغرافية من أحفل مـاعرفنا . وكذلك نجد مادة ببليوغرافية فى كتاب ذى قيمـة كبيرة فى تاريخ أإسبانيا ألفه ثلاثة من أساتذة جامعة بلنسية وجعلوه مقدمة لتاريخ إسبانيا واسمه :

Antonio Ubieto, Juan Regalá, José Mariá Jover, Introduccion á la Historia de Espana, Barcelona ( Teide 1963 ) .

والخلاصة أن دارس تـاريخ الأندلس لا ينبغى أن يغيب عن بـاله أنـه يدرس تـاريخ بلـدٍ إسـلامي أوربىٌ ، فـالعنـاصر الأوروبية جـزءٌ من تكـوينـه البشرى والطبيعى ، والمراجع الأوربيـة جزءٌ من مـراجعه ، ولا يكفى قَطُّ أن يطّلع الإنسـان على المراجع العربيـة سواءٌ أكانت قـديمةً أم حـديثةً ، لأنها فى مجموعهـا تنظر من وجهة النظر العربية وحدها ، وتعتمـد على الأصول العربية وهذا لا يعطى إلا جزءًا من الصورة ويبقى نصفهـا الثانى . وفى بعض الأحيان يكـون ذاك النصف الثانى أهم من المراجع العربية .

مثال ذلك أن دراسة عصر الطوائف من خلال المراجـــع العربيـــة ، لا يعطى إلا جانباً ضئيلاً من حقيقة الأوضاع فى شبـه الجزيرة الإيبيرية ، أما ملوك الطوائف فتتحـدث عنهم مراجعنـا بتطـويل فتجعل مثلاً صـورة المعتمـد بن عَبَّاد قـاضى إشبيلية التى تولى أمرها ، صورة رجلٍ سياسىٌ بعيد النظر يحسن سياسة الأمور ويوجه الأحداث ، بينما هو كان فى الحقيقة لا يمثل مـن الناحية السياسية أية قوةٍ لها أثرٌ فى سير الحوادث ، فهـذا رجلٌ لا يملك قوةً عسكـريةً تمكّن لـه من التأثير فى الحوادث ، بل هو يدفع إتاوةً للملك النصرانى ـ ملك قشتالة وليون ـ وهو أى الملك النصرانى هو القوة المحركة للحـوادث . وإذَنْ فنحن إذا أردنا أن نؤرخ لإشبيلية فى عصر الطوائف ، قد نأخذ بعض المعلومات عن بعض ما كان يجرى داخل إشبيلية ، ولكننا لا نعـرف مصير إمارة إشبيلية كلهـا ، لأن الذى كان يقـرر ذلك المصير هو

ملك قشتالة ، وعندما صار أمر إشبيلية فى كفة الميزان ، كان المرابطون ، وهم مغاربةٌ مسلمون وغير أندلسيين ، هم الذين تولوا مواجهة الخطر النصرانى . وإذن فالذى نفيده من دراسة المراجع العربية شىءٌ قليلٌ ولا يعطى كما قلنا إلا جانباً من الصورة . ولا تكتمل هذه الصورة إلا بالدراسة المتعمقة ، للمراجع غير العربية ما بين إسبانية ولاتينيةٍ وبرتغاليةٍ وقطلونيةٍ .

وقد آن الأوان أن ندرك هذه الحقيقة وأن نعلم أن تاريخ الأندلس جزءٌ من التاريخ الأوربى ، كما هو جزء من التاريخ العربى ودارسه ينبغى أن يحيط بالتاريخين وأن ينظر إلى المسائل من زاويتيها العربية والإسبانية .

ونختم هذه المقدمة الببليوغرافية بأن نسأل كيف يمكن أن يفسر مؤرخٌ عربىٌ لا يعرف غير اللغة العربية والمراجع العربية ، اسم رجلٍ من أكبر علماء الأندلس وهو « ابن بشكوال » واسمه الكامل أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بشكوال الأنصارى ، فكيف يكون أنصاريًّا واسم واحد من أجداده بشكوال ، وهو لفظ إسبانىٌّ صرفٌ ؟ وأبسط ماتدل عليه هذه الظاهرة هى أن سلسلة آباء ذلك الرجل ليست عربيةً أنصاريةً خالصةً فقط بل عربيةً أنصاريةً إسبانيةً ، فلا بد أن جده مسعوداً تزوج من إسبانيةٍ اسم عائلتها بشكوال Pascual وكان لا بد من قراءة الاسم ونسب الرجل هكذا : أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود وبشكوال الأنصارى ، وهذه فى ذاتها ظاهرةٌ اجتماعيةٌ جديرةٌ بالدراسة .

* * *

# الأنـــــدلس

يعتبر فتح شبه جزيرة إيبيريا من أروع حلقـات الفتوح الإسلامية الأولى . فقد جاء ذلك الفتح تتويجاً لجهاد العرب الطويل لفتح المغرب ، الذى استغرق كما رأينا حوالى سبعين سنةً ، مـا بين نصر وهزيمةٍ ومدٍّ وجزرٍ وكان ذلك دليـلاً على حيوية الشعب العربى وإقدامه وإيمانه بدينه ونفسه ، بهذا الفتح الطويل وصل العرب إلى مضيق جبل طارق أو « بحـر الزقاق » كما يسمى ، ووصلـوا فى أوائل العقد الأخير من القـرن الهجرى الأول / العقـد الأول من القـرن الثـامن الميلادى إلى سـاحل المحيط الأطلسى ، من طنجةَ شمالاً إلى سهل السوس جنـوباً ، وبذلك أصبحوا على أبواب أوربا من هـذه الناحية . ومن دلائل حيوية الشعب العـربى أنه لم يقف عند ذلك الحد وإنما تخطّى بحـر الزقـاق ونزل شبـه الجزيرة الإيبيرية وفتحهـا حتى وصل إلى أقصى شمالها ، ثم عبر جبـال ألبرت التـى تسمى البرانس خطأ ، وغـزا «غـالة » وهى فـرنسـا اليـوم حتى وصل إلى سبعين كيلو متراً جنـوبىّ بـاريس . والمسافة ما بين قرطبة وما وصل إليـه العرب شمالا نحو ألف كيلو متر . والمسافة كذلك من أقصى موضعٍ وصلـت إليه جيوش العرب غربـاً إلى دمشق نحو ثمانية آلاف كيلـو مترٍ ، كلهـا قطعها العـرب محاربين منتصرين على أقـدامهم أو ظهـور الخيل والجمال . وذلك عملٌ لم يسبقهم إلى مثله أحـدٌ فى التاريخ . ومن الواضح أن شبه جزيرة إيبيرية ، وهى ما يسميه العرب بالأندلس وما يعرف اليـوم بإسبانيا والبرتغال ، كانـت شاسعةَ البعد عن مـركز الخلافة ، ويكفى أن نذكـر أن المسافة بين دمشق وقرطبة سبعة آلاف كيلو مترٍ ، وهـذه المسافة يستلزم قطعها على ظهر فرسٍ جيّدٍ أربعةَ أشهرٍ ، فكأنك لو أرسلت رسالةً من قرطبة إلى دمشق وصلت بعد أربعةِ أشهر ، وجاء الرد بعد أربعة أشهر أخرى . وذلك يصوّر لنا بعد هذه الأقاليم من مركز الدولة الإسلامية ، ومع ذلك فقـد فرض العرب أنفســـهم على ذلك البلد البعيد ، وحكموه وعاشـوا فيه وحوّلوه إلى بلدٍ عربىٍّ إسـلامىٍّ ، واستمر سلطانهم هناك مـا بين مدٍّ وجزرٍ ثمانيـة قرونٍ ، وإذا كان الأندلس قـد ضاع منا فى النهـاية فذلك ليس بعجيبٍ وإنما العجيب أننا أقمنا فيه هذا العمر الطويل .

الأندلس هى الـدولة الأولى التى أقامها العـرب فى أوربا . وقد كانت لـلإسلام

خلافتان على الأرض الأوربية : الأولى دولة الإسلام فى الأندلس ، والثانية هى دولة الخلافة العثمانية فى الشرق .

وهذه هى الناحية الأولى التى تهمنا وهى الميزة التى تميز بها الأندلس عن غيره من البلاد التى فتحها المسلمون ، فنحن هنا فى بلدٍ أوربىٍّ ونحن مع ملك أقامه العرب فى قلب الغرب الأوربى بين فكّى الأسد كما يقولون ، ومع ذلك فقد تمكنوا من تحويل ذلك البلد إلى مركزٍ من مراكز الإسلام والعروبة . وذلك يشهد للجنس العربى بالتفوق والامتياز ، ويفسر لنا لماذا يعتبر العرب من كبار صنّاع تاريخ الإنسانية ، وقد قال المؤرخ الإنجليزى نيفيل بارير : إن الأندلس بالنسبة للعرب بلاد ما وراء البحار Overseas أى أنه كان بلاد المهجر البعيد الذى ينهض إليه كل رجلٍ جرىءٍ مغامرٍ يريد أن يفتح لنفسه باباً واسعاً من أبواب الرزق والرفاهية ، ومن البديهى أن يكون المهاجرون إلى الأندلس من خيرة العناصر العربية والأصول البربرية التى أسلمت وأظهرت قدرةً على مجابهة الصعاب . ويؤكد ذلك أن الأندلسيين جعلوا من وطنهم واحداً من أزهر بلاد الإسلام وأقاموا وراء البحر دولةً مجيدةً هى الدولة الأموية الأندلسية ودولاً أخرى غيرها ، وأقاموا صرح حضارة زاهرةٍ لا زلنا نفخر بها إلى اليوم ومَدُّوا جسراً حضارياً عبرت به حضارة العرب إلى بلاد الغرب الأوروبى .

وتاريخ الأندلس على هذا قصة جهادٍ مجيدٍ وعملٍ متصلٍ مباركٍ ، وجهد شعبٍ قوىٍّ استطاع بالفعل أن ينشئ على أرضٍ أوروبيةٍ حضارةً عربيةً إسلاميةً، تتميز عن غيرها من حضارات البلاد الإسلامية بطوابعَ نعرفها بمجرد نظرةٍ على أى مظهرٍ من مظاهر تلك الحضارة كما سنرى .

## اســـم « الأندلس » :

وعندما نقول الأندلس فإننا نعنى ما ساده العرب من شبه الجزيرة الإيبيرية ( إسبانيا والبرتغال ) لأن العرب عندما فتحوا الأندلس فتحوه كلّه إلى جبال ألبرت كما قلنا ، وإلى خليج بسكاى الذى يسميه العرب « حائط إفرنجة » ، ثم أخذوا يتراجعون شيئاً فشيئاً حتى إذا قامت الدولة الأموية سنة ١٣٨هـ/

٧٥٦م كـان العرب قـد فقـدوا الركن الشمالى الغـربى لشبـه الجزيرة ، واستمـر سلطـان العرب على بقيـة البلاد حتى سقـوط الخلافة الأمـوية الأنـدلسية سنـة ٤٣٢هـ/ ١٠٣١ م . وبعد ذلك أخذوا ينحسرون ويفقـدون أجزاءً أخرى من شبه الجزيرة ، ولكن لفـظ الأندلس ظل يطلق على مـا بيد المسلمين من شبـه الجزيرة ، حتى اقتصر فى النهايـة على مملكة غرناطـة ، فى الركن الجنوبى من شبـه الجزيرة وهو يمثل ١/٨ ثُمْنَ مساحتهـا . ومع ذلك ظل يسمى الأندلس ، وفى النهاية عنـدما لم يبق فى يد المسلمين إلا مدينة غرناطة كانت هى الأندلس وهكذا .

ولفظ الأنـدلس معـرَّبٌ جاء من لفظ « الـونـدال » الـذين يسمون فى اللغـات الأوروبيـة « الفانـدال أو الفـانداالـوس » . وهـذا القبيل من المتبربـرين غزا شبـه الجزيـرة فى القرن الخامس الميـلادى ، وانحدر إلى الجنـوب تدفعـه قبائل أخـرى جرمـانيةٌ ، حتى انتهى إلى الطرف الجنوبـى من شبه الجزيرة ، وهناك أقـام زمناً طويلاً وسُمِّى ذلك الطرف الجنوبى باسم « فـاندا لوسيا أو واندا لوسيا » ، وبهذا الاسم عرفه البربر الذين يقيمون على بحـر الزقاق . وعندما وصل العرب قيل لهم إن هذه أرض « ونـدلس » ، وحـرف « الواو » هو أداة التعـريف فى لهجـة بـربر طنجـة ، فعُرِّبَ الاسـمُ إلى « الأندلس » . وبهذا الاسم ظلت البـلاد تعرف إلى نهاية الحكم العربى . ولا زال اللفظ فى صورةٍ إسبـانيةٍ هى « إندلوثيا » يطلق إلى اليـوم على ثمانيـة محافظاتٍ صغيرةٍ فى الثلـث الجنوبى لشبـه الجزيـرة جنوبى نهر الـوادى الكبير حتى المرية ، وغرناطة ، وجيان ، وقـرطبة ، ومالقة ، وقادش ، وولية وإشبيلية .

وشبه جزيـرة إيبيريا - وتشمل اليوم إسبانيـا والبرتغال - إقليم واسع تصل مساحته إلى ستمائة ألف كيلـو متر مربع . وإسبانيا وحـدها ، وهى تحتل خمسة أسداس شبه الجزيرة ، تعتبر ثالثة بلاد أوربا فى المساحة بعد روسيا وفرنسا فإن مساحتها ٥١٦,٠٠٠ كم٢ - خمسمائة وستة عشر ألف كيلو مترٍ مربعٍ .

وشبه الجزيرة فى مجموعه عبارةٌ عـن هضبةٍ متوسطةٍ ، ارتفاعها ستمائة مترٍ عن سطح البحر ، وهى أعلى بلاد أوربا باستثنـاء سويسرا ، ونحو ثلث البلاد يزيد ارتفاعه على ثمانمائة مترٍ ، وسلاسل الجبـال التى يصل ارتفاعها إلى ألفٍ وستمائةِ مترٍ ، كثيرةٌ جدًا .

والحد الفاصل بين أوربا وشبه الجزيرة هى سلسلة الجبال التى تسمى باللغات الأوروبية « البرانس » ، وهى سلاسلُ من الجبال تقفل الطريق من شبه الجزيرة إلى جنوبى فرنسا ، فلا يعبر الناس إلا من ممرين فى الشرق والغرب ، ومن ممراتٍ خلال الجبال تسمى « بالأبواب » . ومن هنا جاء لفظ اسمها فى العربية وهو جبال ألبرت ومعناه جبال الباب أو جبال الأبواب . وبسبب هذا الحاجز الكبير، كان الفارق الحضارى بين مايقع جنوبىّ الجبال وشمالها ، فرقاً جسيماً يلاحظه الإنسان بمجرد انتقاله من إسبانيا إلى فرنسا .

وشبه الجزيرة مخمَّسٌ تشقه سلاسل الجبال تجرى مستعرضةً ، وبين كل سلسلة من الجبال والتى تليها يوجد وادٍ يجرى فيه نهْر مستعرضٌ أيضاً ، ولهذا فإن شبه جزيرة إيبيريا ينقسم بالفعل إلى مناطقَ مستعرضةٍ يلى بعضها البعض . ولكل منطقةٍ سلسلة جبالها ونهرها أو أنهارها . وهذه الأنهار معظمها يصب فى المحيط الأطلسى وتنبع كلها من وسط شبه الجزيرة ، فهناك الحد الفاصل لمجارى المياه ، ولا نجد الأنهار الكبيرة التى تحمل الماء الوفير إلا فى النصف الشمالى لشبه الجزيرة . وتلك الأنهار من الشمال إلى الجنوب من ناحية الغرب ، هى المنيو ثم الدويرو ثم تاجة ثم الوادیانة أو الوادى آنه ثم الوادى الكبير وعليه تقع قرطبة وإشبيلية وهى قلب الأندلس الإسلامى ، ومن نهر الوادى الكبير يتفرع نهر شنيل ، وعلى فرعٍ من فروعه يسمى « حدارة » تقع غرناطة .

أما أنهار الغرب فليس فيها إلا نهرٌ واحدٌ كبيرٌ يطلق عليه اسم النهر وهو « إبرو » وتقع عليه برشلونة عاصمة إقليم « قطلونية » الذى استقل الآن استقلالاً داخلياً ، وكان وادى إبرو فى أيام المسلمين يسمى بالثغر الأعلى للأندلس وعاصمته سرقسطة ، وكان من أكبر مراكز الإسلام والعروبة فى شبه الجزيرة . أما بقية الأنهار التى تصب فى البحر المتوسط بعد نهر إبرو ، فصغيرةٌ نسبياً يسميها العرب بأسماء المدن التى تقع عليها ، فهناك نهر بلنسية الذى يسمى أيضا بالوادى الأبيض واسمه فى اللاتينية « توديا » ونهر مرسية وما إلى ذلك . وشبه الجزيرة فى مجموعه إقليمٌ جافٌ بصفةٍ عامةٍ ، فلا تكثر الأمطار إلا فى نصفه الشمالى أى إلى الشمال من وادى تاجة الذى تقع عليه طليطلة عاصمة شبه الجزيرة قبل الفتح العربى . وإذا نظرنا إلى شبه الجزيرة فى جملته وجدنا أن

النصف الأغنى هو الشمالى ،حيث الأنهار الضخمة وأراضى المزارع الواسعة ، وفيما بين نهر تاجه ونهر المنيو توجد أوسع مناطق القمح فى أوروبا بعد الأوكرانيا فى روسيا ، وهناك أيضا أى فى الجزء الشمالى من شبه الجزيرة أراضى المراعى الواسعة التى تتربى عليها الماشية الكبيرة والأغنام الوافرة الصوف وكذلك الخيول الكبيرة الحجم . وهناك أيضا مناجم الحديد والفحم ومعادن أخرى ــ ولا بد أن نلاحظ أن القسم الذى ساده العرب كان أوسع مساحةً بينما كان القسم الذى ساده النصارى أصغر حجماً ولكنه أكثر ثروةً ولكنه نتيجة لذلك كانت ثروته أوفر ولهذا كان الناس أيسر حالاً ، وغذاؤهم أحسن ، وكذلك كانت خيلهم أقوى ، وذلك يفسر لنا لماذا كانت المعركة بين العرب وخصومهم معركةً عنيفةً دائماً ، برغم أن المسلمين كانوا يملكون القسم الأكبر ولكنه الأفقر ، فلم يكن فى النواحى الداخلة فى الأندلس من الأقاليم الغنية فعلاً إلى إقليم بلنسية فى الشرق ، وهى اليوم أعظم مناطق إنتاج البرتقال والأرز فى أوروبا ، ثم ناحية إشبيلية ، وفيما عدا ذلك فإن بقية البلاد الأندلسية التى نفخر بها كانت تقوم فى مناطق فقيرةٍ نسبياً ، حتى قرطبة ذات الصيت البعيد تقع فى إقليمٍ فقيرٍ فى جملته . ومن هنا نتبين حقيقةً كبرى ينبغى أن نضعها فى أذهاننا عندما ندرس تاريخ الأندلس وهى أن العرب أخطأوا خطأً شديداً عندما جعلوا عاصمتهم مدينة قرطبة على نهر الوادى الكبير ، فإن الوادى الكبير نفسه إقليمٌ فقيرٌ ، ثم إنك لا تستطيع أن تسيطر على شبه الجزيرة من بلدٍ يقع فى سدسها الجنوبى ، ولو أن العرب جعلوا عاصمتهم طليطلة لتغير وجه التاريخ ، لأن طليطلة تقع فى وسط شبه الجزيرة تقريباً . ومن الوسط تستطيع بطريقةٍ أسهلَ ، أن تسيطر على البلد ، ثم إن طليطلة ، وعلى مقربةٍ منها مدريد ، وهى منشأةٌ عربيةٌ تقع فى وسط الإقليم الغنى حيث الغذاء وافرٌ والمراعى غنيةٌ ومصادر المعادن متوفرةٌ ، وهى أسلحة الصراع الكبرى . ولكن العرب عندما فتحوا قرطبة كان لهم عذرهم فهم يريدون أن تكون قاعدتهم أقرب ما تكون إلى قلب دولتهم وبقية عشيرتهم فى بلاد المغرب . وعلى أى حالٍ فهذا هو الذى حدث وكانت له نتائجه المعروفة والله سبحانه وتعالى غالب على أمره .